

تجديد الخطاب الديني^(١)

تقديم

لقد شهدت الساحة الإسلامية العلمية والفكرية بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م مؤتمرات كثيرة حول الوسطية، حضرت منها أربعة عشر مؤتمراً، في السعودية والأردن والكويت وقطر وغيرها، كلها بأسماء مباشرة أو غير مباشرة لدراسة مفهوم (الوسطية وآفاقها في الإسلام) وأنشئ مركزان دائمان لذلك:

الأول- منتدى الوسطية للفكر والثقافة في عمان - الأردن عام ٢٠٠٥م حيث عقد فيه ثلاثة مؤتمرات دولية فأكثر.

الثاني- المركز العالمي للوسطية في الكويت عام ٢٠٠٧م ارتباطاً بالأصل واتصال بالعصر.

وذلك من أجل بيان معالم هدي الإسلام في التزام منهج الاعتدال والتوسط في معالجة الأحداث الكبرى في العالم، والجنوح إلى توطيد منهج السلم والاستقرار، ونبذ التطرف والغلو والإرهاب، وتبيين معالم الوسطية في شرائع الإسلام وأحكامه، وفي الخطاب الديني الموجه إلى الآخرين من أجل نشر رسالة الإسلام في العالم، ولتصحيح بعض المفاهيم المشوهة عن الإسلام، ومنها تهمة الإرهاب الباطلة في المفهوم الدعوي الإسلامي، وإعلان البراءة من تصرفات بعض المتورطين في أعمال الإرهاب، وإصدار القرارات الجمعية والعلمية والفكرية التي تشجب سلوكيات الإرهاب، وما يؤدي إليه من دمار

(١) بحث مقدم لمؤتمر مائدة (الإسلام والخطاب العصري) مجلس الثقافة العام - الجماهيرية

وخراب، وتقتيل الأنفس البريئة، وإحداث الذعر والخوف وهزّ الأوساط، سواء في العالم كله، أم في دول العروبة والإسلام.

وهذا إسهام واضح لمؤازرة جهود الدعاة في الإرهاب وتصفية جذوره، ومحاولة القضاء على بؤره وخلاياه، وأنشطته السرية والعلنية، في ضوء المطالب الآتية:

المطلب الأول- مفهوم الوسطية وغاياتها في الإسلام

الوسطية تعني التزام منهج الاعتدال والتسامح والانفتاح على الآخرين، بروح سامية، وإدراك معاصر، ونشاط حيوي معتدل، نابع من توجيهات القرآن الكريم، لا أثر فيه للتشدد والغلو، والتعنت والتعصب، سواء على الصعيد السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي العام، والإعلامي، والثقافي والتربوي، أو على المستوى الفردي والممارسة الشخصية.

وهذا يدلنا على ضرورة أن يبدأ المسلمون بأنفسهم أولاً من التزام منهج الحق والعدل، والرحمة، وحسن الظن بالآخرين، دون اقتراف أي ظلم وتسلط، أو ممارسة عنصرية أو طائفية أو مذهبية أو عصبية، أو تكفيرية، أو تخوينية (اتهام بالخيانة السريعة الحكم) لأي فئة أخرى أو دولة أو شعب، أو تشكيك بمنهج الآخرين من غير حجة ولا برهان، ولا محاولة لنسف الدساتير، وتخطي المعايير، ومحاربة اتجاه الدين، أو تشويه الأعمال المشرفة لمقاومة المحتل، سواء من المسلمين أم من غيرهم على مستوى القيادة والشعب، أو الأفراد والمنظمات الخاصة.

فليست الوسطية مقصورة على المسلمين وحدهم، وإنما هي عامة تمنع عبث المستكبرين والغربيين أو الشرقيين بقضايا الإسلام والمسلمين وغيرهم، والعمل على تجزئة بلادهم وتقطيع أوصال دولتهم، واحتلال أوطانهم، فإن العصر الحاضر خير شاهد على قبح أو سوء المآسي والجراح التي نشاهدها في فلسطين والعراق وأفغانستان وكوسفو والبوسنة والهرسك وغيرها، وستظل هذه الأوضاع

الشائنة دليلاً قاطعاً على أن أيدي حكام الغرب والصهاينة ملطخة بالدماء العزيرة التي تراق من نفوس المسلمين، والجديد أنهم يستعينون ببعض القادة المسلمين أو الأتباع المتعصبين لتنفيذ مخططاتهم، كما نشاهد اليوم في العراق ولبنان وفلسطين.

وحينئذ يتجه السؤال التالي: أليست الوسطية مفهوماً مشتركاً لكل العالم، أو أنها لحماية مصالح المستكبرين، وترك المستضعفين يعانون من مرارة الألم والحرمان، وسفك الدماء، والطرْد والتشريد، واستمرار العدوان، ونهب الثروات والآثار من متاحف وغيرها، ومعاملة المسلمين بكل ألوان الوحشية والعدوان والدمار؟!

الوسطية ليست لمصلحة فئة دون فئة، ولا لأمة دون أمة، أو شعب دون شعب، إن الوسطية دعوة للسلم الفعال، والأمن، والاستقرار في كل البلاد وجميع سكان العالم، وليست هي دعوة للاستسلام والعبودية أمام سادة معينين، دون ممارسة حق المقاومة لكل محتل، سواء أكان احتلالاً إقليمياً عنصرياً كإسرائيل في فلسطين، أم دولياً كأمريكا وحلفائها الغربيين.

الوسطية اعتراف متبادل بالآخرين، فعلى كل فئة أو جماعة أو دولة كبيرة أو صغيرة، قوية أو ضعيفة الاعتراف بحق الآخرين في العيش الحر الكريم، ومعاملة جميع الشعوب والأمم بميزان واحد، لا بميزانين أو مكيالين كما تعامل أمريكا وحلفاؤها في الحقيقة، ولا سيما في مجلس الأمن، العرب والمسلمين في كل مكان بدوافع تعصبية وعنصرية، بقلوب مليئة بالحقْد والكراهية وتشويه الحقائق، وهو تعامل ناشئ من تحالف المسيحية المتصهينة مع الصهيونية العالمية وحمايتها.

وإذا كان أغلب الغربيين قد اختار طريق الديمقراطية، فإنهم في العالم العربي هم الذين أجهضوها، ليسهل التعامل بينهم وبين نظام الفرد، وبخاصة إذا كان حصاد الديمقراطية له صبغة إسلامية، كما حصل في الجزائر، ويحصل الآن مع منظمة حماس في فلسطين.

إن الوسطية نظام يدعو إلى التسامح والحوار، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] وليس من الوسطية التسرع في تكفير الآخرين، أو سبهم وإيذاؤهم مواجهةً، أو إعلان عداوتهم لأول وهلة، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(١) فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيًّا عَلِيمًا﴾ [الأنعام: ١٠٨/٦]؛ أي كيلا يسبوا الإله الحق ظلماً وعدواناً من غير حجة ولا برهان ومعرفة صحيحة.

وهذا يستدعي كون الوسطية دعوة للمصداقية وزرع الثقة وتنمية العلاقات الأخوية البشرية، وتقوية النزعة الإنسانية الصرفة التي تنأى عن الغلو والتطرف والتسبب في التدمير والتخريب والتخويف، فليس للمسلم أن يروّع أخاه في الإنسانية.

والوسطية - خلافاً لما يقول بعضهم - ليست مفهوماً غامضاً ولا عائماً، وإنما هي مفهوم واضح يعتمد على معيار الحق والعدل، وصون الكرامة الإنسانية، لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠/١٧] هذه الكرامة حق طبيعي لكل إنسان، أياً كان دينه أو مذهبه أو أصله أو انتماءه أو جنسيته، لأن الإنسان مخلوق الله وصبغته، كما ورد في القرآن المجيد: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ^ط وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صَبْغَةً^ط وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ

الوسطية دعوة للمحبة والألفة والتعاون، والإخاء الإنساني، وتوطيد دعائم السلم والأمن الدوليين والمحليين، حتى يعيش الناس في وئام واستقرار، ويتفرغوا لعمران الكون وتقدم الحضارة وتبادل المنافع وتكافل أبناء المجتمع الإنساني، وبناء صرح العائلة الدولية الواحدة، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩].

ولكن مع الاعتراف للشعوب المظلومة أو المحتلة بحق المقاومة المشروع،

(١) أي عبدة الأصنام.

كمقاومة اعتداءات (إسرائيل) المتكررة، وأمريكة وحلفائها، فهو حق طبيعي تقره شرعة الأمم المتحدة، وليس (إرهاباً) كما تزعم دول الاستكبار العالمي.

فالإسلام لا يقر ما يسمى بالتطرف أو العنف أو الإرهاب، وهو الاعتداء المحض دون مسوغ مشروع.

وواضح بدهة الفرق بين العدوان المحض والدفاع عن الأوطان، فالدفاع حق مشروع، والاعتداء ظلم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠/٢].

ومن الواضح أيضاً أن معايير الحق والعدل والشورى والمساواة والحرية واحترام الأنظمة والمبادئ والقيم، هي مرجع المتنازعين، وحينئذ ليست الوسطية كما يتبادر لأذهان بعض الناس أنها التوسط بين الخير والشر، أو بين العدل والظلم، أو بين الإيمان والضلال، أو بين شرائع الإسلام ومطالب الأعداء وأنظمتهم الجائرة، فهذا كله عبث، وفهم باطل، وتشويه للحقائق الخالدة.

إن الوسطية كما قدمت تعني الاعتدال في الرؤى والمواقف، والتزام الحكمة بوضع كل شيء في موضعه الصحيح، ورعاية المصالح العليا أو العامة غير المتصادمة مع شرعة الحق والعدل. وهذه هي حقيقة الإسلام خاتم الرسالات الإلهية من غير إفراط ولا تفريط، ولا إعنات أو إحراج، ولا تشدد أو شطط، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨/١٢].

المطلب الثاني- مباني اليسر والاعتدال ومظاهرها في شرائع الإسلام وعمل المسلمين العدول

الشريعة الإسلامية في مبناها ومظهرها وحقيقتها وأحكامها في العبادة والمعاملة والأخلاق هي شريعة اليسر والتسامح، والاعتدال، ودفع الحرج

والمشقة في التكاليف الشرعية، لا فرق بين أحكام العبادات والتصرفات المدنية وتشريع العقوبات والأقضية والأحكام من طهارات وأطعمة وأشربة وغيرها، لآيات كثيرة إجمالية وتفصيلية^(١)، مثل قوله تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» [البقرة: ١٨٥/٢]، «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا» [النساء: ٢٨/٤]، «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [الحج: ٧٨/٢٢].

وعُرفت الشريعة الإسلامية بأنها دين الحنيفية السمحة، وأن الإسلام دين سمح حضاري، النفوس تألفها، والطباع تنسجم معها، وتتجاوب مع أحوال الإنسان وتصرفاته وأعماله، فلا تصطدم معها، ولا تؤدي إلى النفور منها، أو العجز عن أدائها، أو العسر والضيق في التكيف معها.

إن عنصر الإيمان (أو العقيدة) في الإسلام سهل بسيط غير معقد، يعتمد على مبدأ التوحيد والإقرار برسالة خاتم النبيين بقول الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو توحيد يهدم الشرك ومبدأ التثليث المعقد، والذي يحاول فيه النصارى قلب التثليث إلى توحيد وجعل الإله هو عيسى عليه السلام.

وساحة العبادات بالذات تنصف بالاقتصاد في الطاعة، والاعتدال في القربة إلى الله تعالى. ومجال الأعمال والمعاملات قائم على تحقيق العدالة وتجنب الظلم والتوسط في الأمور والتعادل في التبادل، والعلاقات الدولية المحلية والخارجية تقوم على مبدأ صون الدماء والأعراض والأموال والعقول والكفاءات والقيم الخيرة. وأحكام الأسرة المسلمة تعتمد على تمتين العلاقات الأسرية، وتوثيق الصلة بين الآباء والأولاد والقربات، دون تقصير ولا شطط، ولا إرهاب أو ظلم، ولابغي أو تفریط في حق من حقوق الله تعالى، للحفاظ على رسالة الأسرة وشرفها، وتمكينها من النمو والتكاثر، والإسهام في الحياة العامة، وتقديم الروافد الصالحة والكفوة للأمة والمجتمع.

هذه الألوان والمظاهر والحقائق في شريعة الإسلام، تتلخص كما قال ابن

(١) نظرية الضرورة الشرعية للباحث: ص ٣٧-٤٧.

قيم الجوزية: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحُكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها وحكمة كلها..»^(١).

وقال الإمام الغزالي في فلسفة التوحيد: يخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣/٤٥].

وكان المسلمون وما يزالون عدولاً وسطيين في القضايا العامة والخاصة على مدى التاريخ الإسلامي، بدءاً من العهد النبوي وإلى عصرنا الحاضر، في قرون زاهية على مدى خمسة عشر قرناً، لم يعرف عنهم في أغلب الأحوال - ولا سيما مع غير المسلمين - إلا الرحمة والتعاون والإنصاف في المعاملة والعدل في القضاء والأحكام، واحترام العهود والمواثيق، والإسهام في تقدم الحضارة والعلوم والفنون والثقافة.

ولا عيب فيهم سوى أنهم تخلفوا عن ركب الحضارة الحديثة بسبب تأمر الدول الغربية والشرقية عليهم، وتجزئة بلادهم ونهب ثرواتهم، وزرع دولة الصهاينة في قلب الأمة العربية والإسلامية، وإنهاء الخلافة الإسلامية وغير ذلك من الكوارث والمخططات المعلنة والسرية.

المطلب الثالث - إعجاز القرآن البياني المتعلق بالوسطية

تنوعت ألوان الإعجاز في القرآن الكريم لإثبات كونه كلام الله عز وجل، والذي يهمننا هنا إعجازه البياني بحسب الموضوع الذي يريد الله سبحانه وتعالى تقريره، فكانت لغة القرآن وأسلوبه في غاية الجاذبية والتأثير على العقول والقلوب، حتى خرسست ألسنة أساطين الفصاحة والبلاغة عن محاكاته أو مجاراته^(٢). وكان الأسلوب في التشريع المكي لإصلاح العقيدة كالأموال الهادرة، يقرع المسامع،

(١) أعلام الموقعين: ١٤/٣ تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: ٢/٢٢٨ وما بعدها.

ويهزّ النفوس، ويلفت الأنظار، ويخاطب العقول الواعية والنفوس الكريمة، لبناء قاعدة الإيمان الصلب.

أما في التشريع المدني فكان الخطاب هادئاً حيث شرعت الأحكام التفصيلية في شؤون الفرد والجماعة في العبادات والمعاملات والجهاد والجنايات والمواريث والوصايا والزواج والطلاق والأيمان والقضاء وغير ذلك من أنظمة الشريعة^(١).

وأما أسلوب القصة القرآنية فهو يعتمد أولاً على بيان الأسباب ثم يتبعه بالنتائج، وهو بيان يشتمل على الوخز والتقريع والتخويف من العذاب الأخروي أو الدنيوي بنحو تكاد تشيب منه الولدان، وتحسب له النفوس المتعلقة ألف حساب.

هذا اللون من الإعجاز القرآني له تأثيره في الوسطية حيث يستفيد منه الداعية في تبليغ دعوة الإسلام وفي خطاب الآخرين، ويتعلم منه كيفية الحوار وأسلوب الجدل والحجاج، والاعتماد على الأدلة والبراهين الحية والمنطقية والمُقنعة، مستعملاً كل بيان في مقامه المناسب ووضعه الصحيح مثل أدلة إبراهيم الخليل عليه السلام على قومه لإثبات مبدأ توحيد الله تعالى، كما في سورة الأنعام [٧٤-٨١].

المطلب الرابع - تعدد ألوان الخطاب الديني في القرآن الكريم (الأسلوب والغايات)

تعددت ألوان الخطاب الديني في القرآن المجيد بحسب المناسبات والظروف والأحوال، واختلف الأسلوب اختلافاً واضحاً بحيث يكون هناك انسجام بين الأسلوب والغاية المقصودة، وسيتبين لنا من اختلاف أساليب الخطاب في القرآن الكريم ضرورة مراعاة منهج الوسطية والاعتدال، حتى تتحقق الغاية من أقرب الطرق، ويظل المنطلق من الخطاب الإلهي هو تحقيق مصلحة الإنسان

(١) تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ محمد علي السائس: ص ١٢-١٣.

ورعاية أحواله والعناية به، انطلاقاً من مبدأ اللطف الإلهي، فمن أسمائه تعالى اللطيف، ونلمس ظاهرة اللطف الإلهي في القرآن من أجل غرس قاعدة الحب لله تعالى في أصائل القلوب وأعماق النفس والحرص على هداية الإنسان للإيمان السوي، وإصلاح فساد القلوب والسلوكيات، والتعلق بمنهج الرشاد والسداد والصواب.

١- الخطاب الديني في مجال العقيدة والعبادة

في جوهرية التوحيد أو العقيدة تتكرر الأدلة والبراهين من خلال مناقشة المشركين الوثنيين وغيرهم مراراً وتكراراً في سور القرآن، أو مجادلة المتألهين الذين يدعون الألوهية كفرعون وأمثاله من فراعنة حكام هذا العصر، مثل الرئيس بوش الأمريكي، أو كشف حقيقة المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والإلحاد.

فبرهان الاعتقاد بوجود الله سبحانه هو بيان القدرة على الخلق والإبداع والإيجاد فقط، ولم يذكر القرآن برهاناً آخر سواه، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/١٧]. وطريق الخلق هو نفخ الروح في الأشياء كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥/١٧].

ومن أمثلته نفخ الروح الإلهية العملية في البشر والتكوين الإلهي المحض، مما قد يساء فهمه وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩/٣].

وعمم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في حاشيته على العقائد العضدية إيراد الأدلة والبراهين على إثبات الإله الصانع وإثبات النبوات، فقال: «والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود، ثم منه إلى إثبات النبوات، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم به من دون فحص فيما تكنه

الألفاظ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة. ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة، كان ما أدت إليه ما كان، لكن بغاية التحري والاجتهاد.

ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه، فوجده بظاهره ملائماً لما حققه، فليحمد الله على ذلك، وإلا فليعرض عن التأويل، ويقول: «يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا» [آل عمران: ٧/٣] فإنه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله ونبيه. على هذا المنوال يكون نسجه، فيبوء من الله برضوان، حيث أسس عقائده على السيد من البراهين، واستقبل الأخبار الإلهية بالقبول والتسليم وتناولها بقلب سليم.

هذا نمط أساسي لتفعيل منهج الوسيطة في الخطاب الديني الإسلامي، وهو الاعتماد على البرهان العقلي والحسي لإثبات العقيدة، بحيث لا يستطيع أحد التفلت من الإقناع والافتناع إلا أن يكون الشخص مكابراً أو متحدياً أو معانداً، وهو منهج سديد لا يختلف فيه اثنان.

ولا يشير الخطاب العقدي على هذا النحو أي إشكال، إلا في أحوال فيوصف الذين اشتطوا في ضلالهم بالكفر مثل: «وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» [المائدة: ٤٤/٥] ومثل وصف اليهود بسبب تحريف كلام الله واستهزائهم بنبي الله، فقال الله تعالى عنهم: «وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: ٤٦/٤] ووصف بعض كبار عصاة المؤمنين بالظلم وتهديدهم بعذاب النار مع الخلود لتجاوزهم نظام الميراث، مثل قوله تعالى: «وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ» [النساء: ١٤/٤]، وتوصيف عتاة الكافرين أو المشركين بصفة (الظالمين) في آية: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [البقرة: ٢٥٤/٢]، وتهديدهم باللعة والطرده من رحمة الله في آية: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» [هود: ١٨/١١]، أو بيان بعض أحوال العذاب الأخروي لمن مات معانداً مصراً على الكفر في آية: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ» [فاطر: ٣٦/٣٥].

وقد يكون الخطاب بالكفر في حال بيان الموقف الحاسم بين فريق المؤمنين وغير المؤمنين مثل سورة [الكافرون: ١-٦] ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبْدُكُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ والذي لا أمل في العدول عنه.

ومع ذلك لا داعي لمجابهة غير المؤمنين بهذه النصوص الدينية لأول وهلة، إلا عند اليأس منهم، وصيرورتهم في أشد حالات المعارضة ومجابهة جبهة أهل الإيمان، ومحاولة العدوان، وتأزم العلاقات، وإصرارهم على محاربة المسلمين كما نشاهد اليوم.

وفي الدعوة لعبادة الله يخاطب الله تعالى العواطف ويذكر عباده بالنعم الكثيرة عليهم وبضرورة تقدير نعمة الخلق، فيقول الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إنها دعوة رفيقة لطيفة لممارسة العبادة من جميع الناس وفاءً بنعمة الخلق الإلهي، وتصحيحاً لمسيرة السلوك بالتزام تقوى الله (التزام الأوامر واجتناب النواهي).

والخلاصة: أن الخطاب القرآني في مجال العقيدة والعبادة يتميز باللفظ الإلهي، وبيان كون العقيدة في الله بيضاء نقية، منزّهة عن جميع النقائص وعلى استحالة وجود الولد والوالد، وكل ما يشعر بمشابهة الخالق بالمخلوق، ووصف الله بالكمال المطلق، وإعلان الوحدانية المطلقة، وحدانية الربوبية ووحدانية الألوهية.

ولقد ضلّ اليهود بعد موسى عليه السلام، فعبدوا العجل وألّهُوا المادة، وجعلوا العبادة مجرد طقوس وشكليات خالية عن المعاني الروحية السامية، وضلّ النصارى بعد عيسى عليه السلام، فذهبوا إلى عقيدة التثليث، وصارت كنائسهم من عهد قسطنطين كهياكل الوثنية الأولى، ومنحوا رجال الكهنوت ما هو حق لله وحده في التشريع والتحليل والتحرير^(١).

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: ٢٣٩-٢٤٠.

وشوّه كثيرون أصول العبادة وانحلوا من ممارستها مع أنها طريق تكوّن الشخصية القيّمة.

٢- الخطاب الديني في نطاق بيان الشريعة والأحكام

الخطاب الديني الإسلامي هو مجموعة القواعد والأصول الشاملة للشواهد والمتغيرات، والتجديد في الإسلام هو المنهج المحقق لغاية المجتمع من خلال المرجعية الإسلامية، إما من خلال مواكبة العصر، أو تغليب النزعة المعاصرة على القديم التراثي، أو ملاحظة مفهوم التقدم والتأكيد عليه.

لا نرى في الخطاب القرآني التشريعي أي تشدد أو تحجر أو إحراج وتنطع أو تنفير، وإنما يتسم بيان القرآن في ذلك بغاية اللطف الإلهي والترغيب والتشويق، سواء في الدعوة لأداء العبادات المفروضة من صلاة وزكاة مثل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣/٢] وصيام رمضان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣/٢] وأداء الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧/٣].

أو سواء في بيان أصول التشريع العامة، مثل الوصايا العشر في هذه اللوحة الخالدة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَزُفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٥١] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْأَمِيرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٥٢] وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٣] [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

فهل بعد هذا الأسلوب أدق وأقوم وأجدى للإنسان المتعقل لا المتهور لتحقيق مصلحته؟! وهل نحتاج إلى القول بتغيير الخطاب الديني في هذا المجال؟ أليس هذا الأسلوب أرفع وأسمى من صيغ القوانين الوضعية التي تكتفي بالوصف والتعداد والأحكام دون ترغيب أو ترهيب، أو ربط بتحقيق الغايات وتقويم السلوكيات؟!

٣- منهج القرآن في إحقاق الحق وإقامة العدل ونبذ ظاهرة الغلو والتطرف

تميّز منهج القرآن الكريم في تقرير حقيقة البنية التشريعية وبيان الإيجابيات والسلبيات بأنه يبني الشريعة كلها للفرد والجماعة تحت مظلة قومية وراسخة وأساسية وواقية، ألا وهي مظلة إحقاق الحق وإبطال الباطل، والتزام أصول العدل الذي يحقق الدوام والاستقرار، والطمأنينة وراحة النفس الإنسانية، ومن ثم وقاية الإنسان والمجتمع والمؤسسات والدولة وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان من كل مثرات القلق والاضطراب، والتفكير بالتمرد والطغيان، واللجوء إلى التورط في العنف والغليان، والغلو والتطرف، لشعور الإنسان بظلم الحكام وجور السياسة والتسلط وتحكم فئة قليلة في مصائر الكثرة الغالبة، ونجد ما يحقق هذه المقاصد في نصوص القرآن المجيد، لحماية الأمة من جميع مظاهر الضعف أو الثورة، أو التمرد، والإحساس بالظلم الاجتماعي، أو الانقسام الطبقي أو احتكار السلطة والثروة وحرمان الضعفاء منها، فقال الله تعالى في شأن إعلاء منارة الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩/٦١].

وأعلن القرآن الكريم، حين انتصار الإسلام والمسلمين في فتح مكة المكرمة عاصمة العالم كله، بأن دعوته هي دعوة الحق وإزهاق الباطل على الدوام والكمال، فقال الله عز وجل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١/١٧].

وأما الالتزام بقاعدة العدل والإنصاف والميزان بين جميع الناس، سواء

أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فواضح في آيات قرآنية لا يرقى إليها أي خطاب أو دستور آخر، منها قول الله تعالى :

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠/١٦].

- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥/٤].

- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ(١) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨/٥].

- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧/٢١].

والهدف الكلي من رسالات الأنبياء قاطبة تحقيق القسط (أي العدل) قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥/٥٧].

ولقد شهد تاريخ المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين أسمى مثال لتطبيق منهج العدل العام، لأن استقرار الأوضاع يكون حين يسود الحق والعدل، ويعم الخير والرِّفاه جميع الناس، فتصفو النفوس، ولا تنشب نزاعات أو تشور صراعات، أو تتقد نيران، أو يظهر غلو وتطرف، أو يبدأ إحساس بالظلم، أو تعمل خلايا الإرهاب على الهدم والتدمير.

إن قيمة العدل الكبرى خالدة، ولا حاجة للمساومة على قاعدة العدل، أو محاولة المساس بنظام العدل، وشرعية الحق، أو تعديل الخطاب الأبدي في إعلاء شأنه.

(١) بغض وكراهية.

٤- صيانة رسالة الأخلاق والقيم العليا

لا حياة للأمم والشعوب والأفراد بغير الأخلاق القويمة والالتزام بالقيم العليا من المحبة، والتعاون والتراحم، والعفو، ورعاية الفضيلة ومقاومة الرذيلة، والصدق، والإخلاص، وإشاعة الثقة، والتراحم، وحسن الظن، والإحساس بالإخاء والوئام، والحلم والصبر، وحب الخير، وعلو الهمة، والمروءة، والحفاظ على الطهر والعفاف، وسلوك طريق الاستقامة في جميع الآداب والأعمال، وتنوير البصيرة في الأخذ والعطاء، والالتفات إلى ما في القرآن الكريم من قيم الحق والخير والعدل والجمال، والإحسان إلى الآخرين، والإقبال على مواصلة المحتاجين والضعفاء وكبار السن والصغار، وإنصاف المرأة دون إلحاق أي جور بها، وحب العلم والمعرفة والثقافة التي تنير للأمة طريق البناء والحضارة والتقدم، وإيثار الفضيلة، ومقاومة الفساد والرذيلة.

ومن المعلوم أنه لم يصف الله نبيه بصفة أعلى وأسمى من أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١] وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤/٦٨].

وجمّاع^(١) أصول الأخلاق في ثلاث خصال، وهي التي اتصف بها نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩/٧]. إن الخلق الكريم وسع الدنيا والآخرة، فمن كان على خلق واستقامة فهو في أعلى غرف الجنان. وصاحب الخلق الرفيع هو الحكيم السامي، وهو المؤمن المتوسط، لأن الوسطية والاعتدال أساسها التسامح، وسمو الحب، واحترام الآخرين، وتقديم العون لهم، وقضاء حوائجهم. ومن

(١) يقال: جمّاع الشيء: جمّعه يقال مثلاً: الخمر جمّاع الإثم.

تخلّق بأخلاق الإسلام حقق رضوان الله، واستنار قلبه بحب الناس جميعاً، وكان قدوة حسنة لكل إنسان، وكان سلوكه القويم أصدق دعوة لدين الله وشرعه، وإنارة الطريق لمحبة الدخول فيه.

والخطاب الديني ينطلق أساساً من الأخلاق الكريمة والقيم العليا التي تحمل كل المعاني الإنسانية الفاضلة، فيحب الناس كل مؤمن، ويحب هو غيره، ويحقق النجاح والسعادة والطمأنينة لنفسه ولغيره. ومن كان ذا خُلُق كان على هدى وبرٍّ أو خير، لاستيعاب الآخرين بحلمه وعطفه ولطفه وكياسته، وكان منارة للإسلام في قبول هديه ورشده وعقيدته، وكان بسلوكه الطيب هو المؤمن الصادق، وما أوقع في النفس ما عبّر عنه القرآن الكريم حين وصف تأثير الكلمة الطيبة على الآخرين في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

والحاصل: إن احتضان الإسلام لرسالة الأخلاق الكاملة، والأعمال الفاضلة، والقيم العليا، كان من أهم مقومات الإسلام وخلوده وانتشار دعوته السامية القائمة على الحق والإحسان في أنحاء العالم كله.

وحينئذ يكون الخطاب الديني القديم والحديث، والماضي والمعاصر، والواقع والمستقبل سواءً، لا يحتاج لتجديد ولا تبديل، لأن أصول هذا الخطاب قديمة ومنطقية وسوية، وصادرة من الله العلي الحكيم. كل ما نحتاج إليه أن نرقى لمستوى الإسلام الصحيح، ووعي قيمه ومبادئه والتخلق بأخلاقه الفاضلة.

٥- سياسة الإصلاح الرشيدة ومنهج الدعوة الأقوم في القرآن المجيد

إن دعوة الإسلام دعوة إصلاح كبرى، وحملة واسعة لتطهير المجتمع من كل ألوان الفساد والانحراف، والفوضى، والوثنية والشرك، وغرس العقيدة الإيمانية الصحيحة بالله عز وجل وبرسله وكتبه واليوم الآخر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا

فُتْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» [الأعراف: ٥٦/٧] «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» [البقرة: ٢٠٥/٢].

ومهمة القرآن في هذا التوجه واضحة وأصيلية وورصينة، قال الله تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾» [الإسراء: ٩/١٧-١٠].

ولقد انتهج القرآن طرقاً عديدة في الإصلاح، وسلك سياسة حكيمة في هداية البشر، مما أدى إلى نجاح منهج الإصلاح بكل ما يحتاج إليه الناس، ولا يحتاج الخطاب الديني في هذا الاتجاه إلى تعديل أو تبديل، لأن القرآن يخاطب العقول، ويتجه إلى موضع الداء، ويبين الغاية من الإصلاح، وهي إسعاد الفرد والجماعة، مختاراً في فاتحة الخطاب إما التعبير العام وهو «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ» الوارد في القرآن الكريم (٢٤٠ مرة) والشامل لكل الفئات من المسلمين وغيرهم، وإما الكلمة المفردة وهي «الْإِنْسَانِ» الواردة في القرآن (٦٥ مرة)، وإما التعبير الخاص بالمؤمنين الصادقين برسالة القرآن والإسلام، وهي كلمة «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا» الواردة في القرآن (٨٩ مرة)، وإما عبارة «يَعْبَادِي» أو «عِبَادِي» الواردة في القرآن (١٧ مرة).

وكل هذه التعابير تدل على خاصية اللطف الإلهي، وعلى عناية الله بمحبة عباده والحرص على هداية الإنسان أو رشاده، مما يوجب انتباه الإنسان العاقل للخطاب الإلهي، ويلفت النظر إلى ضرورة فهم هذا الخطاب، ووعيه وإدراكه، والمبادرة إلى الامتثال لمضمونه.

وهذه التعابير أسمى من كل ما يخاطب به الزعماء المعاصرون شعوبهم مثل قولهم: أيها الشعب، أيها المواطنون، أيها المصريون أو السوريون، أو الليبيون، أو العرب الأحرار، وكلها عبارات تستدعي الاهتمام أو العناية أو الانجذاب للخطاب السياسي العام.

والأمثلة كثيرة في القرآن، منها: «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩].

ومنها: ﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٧-٦/٨٢].

ومنها: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧١-٧٠/٣٣].

ومنها: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَمَرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩].

ومن الناحية الموضوعية يدعو القرآن إلى الجدل مع الآخرين بالحسنى واللطف والكرامة والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥/١٦].

وقد يكون الخطاب بالتسوية بين المؤمنين وغيرهم، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤/٣].

ومثل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤/٣٤].

وقد يكتفى بآية قرآنية واحدة في مجال الدعوة والإقناع والإيجاز والحوار، فإن أعظم آية في القرآن: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥/٢].

وأعدل آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠/١٦].

وأخوف آية في القرآن: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٨-٧/٩٩].

وأرجى آية في القرآن: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩] ^(١).

وقد تعبر آية موجزة عن مدلول عظيم يصلح أساساً للحياة الإنسانية العالمية، وإعلان حقوق الإنسان العام وهي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠/١٧].

تنوع أساليب الخطاب في القرآن

تتعدد الأساليب القرآنية في الخطاب توافقا مع إعجاز القرآن، واختياراً لتحقيق الغاية، أو تطابقاً مع المقام المناسب بمخاطبة العقول، أو مراعاة للمواهب والاستعدادات، أو فورية في توجيه الأمر، أو تدرجاً في التشريع، أو رعاية لمطالب الروح والجسد، أو جمعاً بين مطالب الدنيا والآخرة جميعاً أو تشديداً أحياناً وتيسيراً ورفعاً للحرَج عن الناس أحياناً كثيرة أو لغير ذلك من المقاصد.

أما التوافق مع الإعجاز فمثل حكاية طوفان نوح في آية واحدة هي: ﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤/١١].

أو في آيات قصار، مثل تقرير نهاية الظالمين الوخيمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٦] مُهْطِعِينَ مُنْجِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدَهُمْ هَوَاءٌ [٤٣] وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ [٤٤] وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ [٤٥] وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١٤٩/٤ منشورات الرضا - بيدار، مطبعة أمير.

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٧].

ومثل النظم القرآني المعجز الذي أعجز البلغاء وألجم الفصحاء في سورة الرحمن (١-٧٨) وسورة الذاريات، والنجم، والقمر، والواقعة.

وتحقيق الغاية السريعة مثل: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦-٢٧] ومثل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصفات: ٢٤-٢٦].

ومخاطبة العقول والأفكار، والدعوة لإعمال النظر وطلب الدليل، ومنع التقليد الأعمى للآباء والأجداد، والركون إلى الجمود، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]. وآيات المطالبة بإعمال العقول والمدارك والحواس ونهاياتها كثيرة جداً في القرآن الكريم.

ومخاطبة الغرائز النفسية كغريزة التقليد وتوجيهها نحو الأمثلة الطيبة، والتأسي بالأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، التي ورد فيها آيات، منها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١/٣٣] ومنها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩/٥٧].

وغريزة حب البقاء والاستعلاء في الأرض، حجبها القرآن عن الظلم والبغي، ووجَّهها نحو الدفاع عن النفس والدين والعرض والوطن والمال، وقادها إلى الحق والخير في حياة الخلود والبقاء في عالم الآخرة مثل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠/٧٦].

ومراعاة المواهب والاستعدادات واضح في ترتيب الأوامر والنواهي، بجعل الأوامر درجات، تتدرج من الإيمان إلى الإسلام، إلى الركن أو الفرض، إلى

الواجب، وإلى المندوب المؤكد وغير المؤكد، وكذلك النواهي درجات من نفاق إلى شرك وإلى كفر، وإلى كبيرة أو صغيرة، إلى مكروه تحريماً أو تنزيهاً، ويأتي بعدئذ المباحات لاختيار المكلفين، وكل ذلك للترغيب أو الترهيب.

وقد يكون الأمر على الفور مثل: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤/١٥] وفريضة العبادات الأربع، وقد يكون على التراخي، مثل أداء الصلوات المفروضة في أوقات متسعة، وجعل وقت الوفاء بالنداء بالنداء العمر كله، وقضاء رمضان كله أو بعضه على مدى السنة.

وقد يكون هناك تدرج في التشريع، وهو من خصائص الشريعة في العهد النبوي، كتحريم الخمر أو الربا على أربع مراحل.

ويراعى كون هذه الأمة المسلمة أمة وسطاً، فيأتي القرآن أحياناً محققاً مطالب الروح ومطالب الجسد، فلا تغلب على المسلمين المادية والحفظ الجسدية والشكليات والطقوس كاليهود، وكذلك لا تغلب عليهم الروحانيات المحضة وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالهندوس والنصارى في تعاليمهم، وقد وجه الله تعالى المسلمين إلى العناية بالدنيا والآخرة معاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧].

ومن سمات الإسلام وخصائصه التيسير ودفع الحرج، كما تقدم لتفعيل منهج الوسطية دون إرهاق ولا تشدد ولا مضايقة، عملاً بقول الله سبحانه في آيات كثيرة مثل قوله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦/٥]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ٦٤/١٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٥]، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ١٨٥].

٣/٥، ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾
[النحل: ١٠٦/١٦].

وقد وضع الفقهاء بناء على ما تقدم قواعد عامة ومهمة مثل: «المشقة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المحظورات» ثم فرعوا عليها أحكام فروع كثيرة^(١).

واتسم القرآن الكريم بسمو التشريعات وشمولها وتلبيتها لحاجات كل زمان ومكان، لأنه كتاب الله الخالد إلى يوم القيامة، ومعجزته لكل الناس لا للعرب وحدهم، ولا لجيل دون جيل، بل للأجيال كلها، ولتحقيق مدلول الوسطية في الخطابات التشريعية أو جميع الأحكام الشرعية، سواء ما كان منها متعلقاً بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع أو بالعلاقات الدولية في حالتي السلم والحرب أو غيرها مما يغطي متطلبات الحياة الإنسانية كلها.

٦- إقرار النظام وترسيخ مدلول عقاب المتطرفين لتحقيق السلامة الجماعية والاستقرار والسلم والأمان في أنحاء العالم

الشريعة الإسلامية كلها شريعة نظام وانضباط للأمة والمجتمع والدولة والأفراد، لأن سمو الحضارة، وتقدم المدنية، وبناء النهضة، لا يتم بغير نظام، ليتحقق الاستقرار، ويسود السلم والأمان في جميع أنحاء الأرض، ولاجتثاث كل معالم الفوضى والقلق والاضطراب.

ومن أجل هذا ولتحقيق معنى الوسطية في الخطاب وغيره، كان الإسلام ديناً ودولة ومنهج حياة، ولم يتخلف المسلمون إلا حين فصلوا الدولة عن الدين، والآخرة عن الدنيا، وكذلك كان تقدم الأمم والشعوب الأخرى مبنياً على احترام النظام والقانون، أما نجاح الغرب في فصل الدين عن الدولة، فلأن الدين المسيحي ليس فيه شيء من نظام الدنيا، عملاً بقول السيد المسيح عليه

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٢٥٧-٢٦٢، المرجع السابق.

السلام: «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر» وإنما المراد فصل سلطة الكنيسة عن الدولة.

واحترام الأنظمة يتطلب عقاب الجناة، ولا سيما الذين يمارسون ألوان العنف والتطرف والإرهاب، وتكون الدولة في سلطانها الداخلي معذورة في إيقاف أو استئصال هذه الظاهرة السيئة جداً، لأن ارتكاب الجريمة والإخلال بالأمن والسكينة يقضّ راحة المجتمعات، ويسبب إلى قدسية النظام، ويدمر البنية العامة للجماعات والدول والأفراد.

وهذا هو مفهوم الاستقامة في تشريع القرآن المعبر عن ضرورة الالتزام بالشرائع والأحكام واحترامها، وهو الذي كان موجهاً للرمز الأول بين المسلمين، هو النبي ﷺ بخطابه في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١٣-١١٢/١١]. [هود: ١١٣-١١٢/١١].

٧- دور مؤسسات التربية والثقافة والإعلام والوعظ والإرشاد في خطاب الآخرين

إن القصور الملموس في تنمية مدارك المنهج الوسطي في الخطاب الديني وغيره، وخلو المناهج التربوية والثقافية من تدريس وتفعيل مدلول الوسطية في الإسلام، أدى إلى هذا الجنوح والتطرف الذي نعاني منه اليوم، مما أدى إلى اتهام المسلمين بالإرهاب، وهي تهمة باطلة، لأن الإسلام كله دين الرحمة واليسر والتخفيف، والبعد عن الغلو والتطرف أو الإرهاب، وهو دين الانضباط واحترام الأنظمة، والبعد عن كل ما يقضّ مضاجع الآخرين، أو ينشر الذعر والخوف والاضطراب في أوساطهم.

إننا اليوم بحاجة ماسة إلى تفعيل منهج الوسطية المقرر في صريح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] ومعناه التزام الاعتدال والاتزان والتسامح وتحقيق معنى «الخيرية» الموصوف بها هذه الأمة

الإسلامية في قول الله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا يتم تفعيل منهج الوسطية أو الخيرية إلا بإحداث مراكز للوسطية في كل بلد إسلامي، ووضع مناهج واضحة المعالم في شرح معنى الوسطية وفوائدها وآثارها على الحياة الإنسانية في مختلف المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية، وكذلك في منابر الخطابة والوعظ والإرشاد في المساجد والمدارس والمناسبات المتنوعة، ووضع ضوابط إلزامية للفتاوى السرية والعلنية، وبيان أنماط الخطاب الديني المعاصر، المناسب منه وغير المناسب مؤقتاً، والعناية بمضامين حقوق الإنسان والمعارف الإنسانية، وإيجاد دورات تثقيفية للأئمة والخطباء والمفتين، وتعزيز قيم المواطنة في كل بلد، وتحديد معاني وضوابط المقاومة أو الجهاد ضد الغاصبين والمحتلين والمتسلطين من الأعداء، وتنمية روح التسامح بين أتباع المذاهب الإسلامية، واستئصال كل عنعنات القبلية والطائفية والمذهبية والدينية. والعناية بمعرفة القيم الإنسانية الخالدة، ليعيش المجتمع والناس في كل مكان بأمان واستقرار، ومحبة ووثام، وتعايش دائم ومبرمج وفعال.

إن تثقيف أبناء الجيل وغرس القيم العليا في نفوس المجتمع، وتوجيه الناس إلى الانضباط بمعايير الشريعة والأخلاق والسلوك والممارسة العامة، يؤدي كل ذلك إلى معرفة سمو المسلم، وسمو كل إنسان، وحقه في حياة آمنة عزيزة كريمة، حتى لا تكون الوسطية مجرد شعار كأكثر الشعارات المعلنة غير المؤصلة ولا المطبقة عملياً.

٨- هل يتغير أسلوب الخطاب الديني في القرآن أو في تبليغ دعوة الإسلام؟

القرآن الكريم كلام الله الخالد، وأسلوبه واضح، وقيمه معروفة، ونداءاته الإنسانية العامة والخاصة ثابتة لا تتغير ولا تبدل، فلا حاجة للمزيد أو المزايدة

على معطيات القرآن الذي لا يقبل أي تعديل أو تبديل فيه، سواء في خطابه أم في شرائعه ومبادئه وأحكامه.

ولا حاجة لتجديد الخطاب الديني كما يردّد بعض السطحيين والمغتربين بثقافة الغرب وإعلام المعتدين، فإن خطاب القرآن منذ نزوله وإلى يوم القيامة لا يحتاج إلى تجديد، وإنما الذي يحتاج للتجديد هو نحن بأنفسنا ووعينا، وفهمنا وسلوكنا، ورؤيتنا المتفتحة لمعطيات العصر، وتحقيق الانسجام بينها وبين مستوى القرآن السامي المحتوى، والذي يعد قديمه وجديده سواء.

إن الخطاب الديني يتطلب الحفاظ على الثوابت والأصول، مع تغيير الأسلوب، واختيار الخطاب المناسب لإعلانه، وفهم مدلولات هذا الخطاب القرآني في مختلف أنحائه حسبما تقتضيه ظروف الانفتاح على العصر، ودرء الشبهات، وتفنيد التهم، وتصحيح المفاهيم، وصدّ سيل الحملات المغرضة، وتشويه الحقائق الإسلامية والإنسانية.

وإن مقولة تجديد الخطاب الديني بضوابطه تتطلب أيضاً تجديد الخطاب السياسي العالمي والمحلي، وتبني استراتيجية جديدة في مقاومة التطرف على نحو يعم فيه قيم الخير والحرية والمساواة والعدل والإنصاف، وتنتهي فيه لغة التهديد والوعيد وصيحات الاستكبار الغربي والصهيوني.

إن خطاب القرآن واضح، وهو لا يحتاج إلا إلى تأمل ووعي وإدراك، ومحاولة لتحقيق الانسجام بين أحكامه وتوجيهاته، على منهج الحكمة، وإدراك المقاصد التشريعية، وتحقيق مدى ملاءمتها مع الواقع القائم على شريعة الحق والعدل والمساواة، والحفاظ على حرمة الأوطان، وعزة المسلمين وحقهم في الدفاع عن كرامتهم ووجودهم، ومقاومة كل ألوان الاعتداء عليهم، وعلى ثقافتهم، وأوطانهم، ومقدساتهم وثرواتهم.

وإنما الذي يحتاج إلى تجديد هو أسلوب نشر الدعوة بما يتحقق مع أعراف وثقافات العصر ومتطلباته وأذواقه.

إن تحقيق مدلولات حقوق الأمة المسلمة واجب على كل مفكر مسلم أيًا كان موقعه ووجوده، لأن الخطاب الديني في القرآن يركّز على صون عزة الأمة المسلمة، وحماية حقوقها وكرامتها، والعمل على وحدة المسلمين لمواجهة التحديات وتجاوز الصعاب، وطرد المستعمر أو المحتل الدخيل، وعدم الرضوخ لمحاولات الهيمنة الاستكبارية الغربية أو الصهيونية، وترديد الأغاليط وقلب المفاهيم وتزييف الحقائق، فأمتنا ترفض كل ممارسات الذل والمهانة والاستسلام والتصفية، وتتمسك بكل إباء وشمم بمقدساتها ووجودها وحقوقها المسلوبة.

وإذا لم يدرك الغرب وحلفاؤه في أوربة أو في المفهوم الصهيوني المتجبر والعاتي هذه الأصول والثوابت في ضمير الأمة المسلمة ووجدانها، فلا أمل في اللجوء إلى «الوسطية في الخطاب وغيره»؛ لأن هؤلاء لا يوقنون إلا بعبادة مصالحهم، وممارسة تسلّطهم على الضعفاء، فإن توسطوا وقَدّروا قيمة الحوار والاعتراف بحقوق الآخرين على قدم المساواة، فحينئذ ينتعش الأمل، ويعيش العالم كله بسلام وصفاء وأمان.

٩- الغاية من تجديد الخطاب الديني

أغلب المصطلحات المقترنة بالحدثة والمعاصرة والإصلاح والتجديد والعولمة والديمقراطية وغيرها يراد بها تطويع مفاهيم الإسلام وأصوله الكبرى وأحكامه العامة والخاصة، وإخضاعها للمفاهيم الأمريكية والغربية، أي تزوير الإسلام وصهره واحتوائه في مخططاتهم المشبوهة والمدمرة، من خلال تفسير القرآن والسنة.

ليس المراد من التجديد في الإسلام أو الخطاب الديني خاصة هو تغيير الدين بالحذف أو الإضافة أو التأويل الزائف، وإنما التجديد هو الحفاظ على ثوابت الدين وجوهره وخصائصه ومقوماته، وتفعيل مبادئه وأحكامه بحسب منهجه وأصوله في العهد النبوي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩/١٥]، وفي مجال الاجتهاد في فهم النصوص الشرعية يمكن مراعاة

مقتضيات التطور والأعراف المتجددة والمصالح المتغيرة، بإعمال العقل الصحيح والنظر والتأمل، والاستئناس بمفاتيح العلم والمعرفة المعاصرة، وفي هدي إدراكات الحواس والاهتداء بالتجارب، والتزام الحقائق الدينية والعلمية، والموائمة بين الحكم الشرعي والواقعية، وفهم النص فهماً عاماً شاملاً لا ضيقاً ولا خاصاً، وتعليل الأحكام بالمصالح، وفقه غايات النص بإصلاح النفس وإصلاح الإنسان، ومراعاة حقوق الغير، وحال الإنسان ومحيطه ومقتضيات التبدلات والتغيرات الصناعية الجديدة وآفاقها المطلوبة، والنظر بمقياس موضوعي للتجديد واستيعاب قيم الحداثة مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات والنساء والأطفال والعاطلين عن العمل، والعجزة والهرمى.. إلخ.

وكذلك الشأن في الخطاب، ليس المقصود من تجديده تجاوز مدلولات النص، وإنما تجديد الأساليب والمناهج والطرق المؤدية للغاية.

وليس التجديد هو نسف الإسلام وإلغاء النصوص أو جعلها في آخر المدار، كما يريد بعض الساسة، مثل أتاتورك وبورقيبة وشاه إيران وأمثالهم من العلمانيين، وكما يريد مفسرو الإسلام الجدد بحسب المفهوم الغربي مثل أركون ونصر أبو زيد وعبد المجيد الشرقاوي وسلمان رشدي، وقريب منهم ممن يحقق أهدافهم، مثل محمود حنفي وعبد الله النعيم، وبعض الصحفيين والوزراء المبهورين بثقافة الغرب، والمبتعدين عن مفاهيم الإسلام الصحيحة وأحكامه المقررة.

نعم إنني أطالب أولاً بالإصلاح السياسي، ليأتي تجديد الخطاب الديني موائماً لمقتضيات الحياة المعاصرة، ولأنه لا إمكانية للإصلاح الديني من دون عملية إصلاح سياسي شامل.

الخاتمة

الوسطية تعني التزام منهج الاعتدال والاعتدال والتسامح والخير والانفتاح على الآخرين بروح سامية ووعي جديد وإدراك معاصر ونشاط معتدل، لا أثر فيه للتشدد والغلو، والتعنت والتكفير، والتعصب، على مختلف المستويات، واعتراف بالآخرين، وأخذ بأسلوب الحوار والإقناع.

ولا تعني الوسطية التخلي عن الثوابت والأصول، والحفاظ على مصالح الأمة وقضاياها العادلة، والدفاع عن وجودها وعزتها وكرامتها.

والوسطية تتطلب مقاومة المحتل والمعتدي الخارجي، وتقمع كل نشاط إرهابي في داخل البلاد الإسلامية والعربية وغيرها.

إن الوسطية في الخطاب الديني وغيره من الشرائع والأحكام تُؤثر اللجوء إلى تحقيق الفضيلة ومقاومة الرذيلة، واستقرار السلم والأمن الدولي والمحلي، وكان المسلمون في مختلف عهودهم وتاريخهم أمة الوسط والتعايش الديني والودي مع غيرهم في بلادهم، وكذا في الوسط الخارجي، إلا وفقاً لمقتضيات سياسة الدفاع، ومقاومة العدوان والمعتدين.

وقد تعددت أساليب الخطاب الديني في القرآن وبيان غاياته على نحو يحقق المطلوب من أيسر الأنشطة، سواء في مجال الدعوة إلى العقيدة أو الإيمان، أو العبادة أو المعاملة أو الأخلاق أو تطبيق الأحكام والشرائع، والتصورات والآراء، أو احترام القيم العليا العامة.

إن القرآن الكريم يدعونا دائماً إلى التزام العمل من أجل إحقاق الحق، وإقامة العدل، والدعوة إلى تطبيق نظام الشورى أو الديمقراطية الإسلامية، واحترام حقوق الإنسان في الوجود والحرية والمساواة والعيش الكريم.

ومنهج الدعوة والخطاب الديني في القرآن منهج سليم ومنطقي ومقبول في كل زمان ومكان، ولا يحتاج لتجديد أو تعديل، لأن القرآن أو الإسلام دين الرحمة العامة بالعالمين، وإنما الذي يُجدد هو الأخذ بالأساليب المعاصرة، والثقافة

الحديثة، والعلوم والمعارف الجديدة، والأعراف الصحيحة، وهذا في تقديري هو المطلوب في عبارة «تجديد الخطاب الديني».

وما أعظم وأصح وأحكم منهج القرآن في خطابه المختلفة، الموجهة للعقول والأفكار، والاعتبارات النفسية، والمواهب والاستعدادات البشرية، والتزام منهج اليسر ودفع الحرج، ومراعاة حاجات الروح والجسد، والسمو والفضيلة، والحق والعدل، واحترام الأنظمة العادلة، ومقاومة أفكار الغلو والتطرف والإرهاب التي تؤدي إلى الدمار والخراب، واهتزاز الثقة بالمسلمين، وتشويه سمعة الإسلام الشريفة والنقية والسامية.

ولا بد لتفعيل منهج الوسطية من العناية بها فكرياً وفقهاً وممارسة وأملاً، في المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية، وتثقيف الوعاظ والمرشدين والأئمة بالثقافة الصحيحة، والدعوة إلى شرع الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، واللجوء إلى الحوار لا إلى تأجيج نيران الصراع وإثارة الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية، أو الاتهام السريع بالكفر المؤدي إلى التنفير، أو اللجوء إلى التشدد والتنطع والتبرم بالآخرين، لأن الإسلام هو أول من دعا إلى الاعتراف بالغير، وتركه إذا أصرَّ على عناده وانحرافه، والله يحب المحسنين.

